الصحافة الشرقية في خمسين سنة

لكتابة التاريخ اساليب شتى اهمها اثنان الاول ما يدور معظمهُ على محور الاشخاص واعمالهم الخاصة والثاني ما يدور على محور الحركات العامة والنهضات . ولكل من هذين الاسلوبين انصارهُ ومميزاتهُ وقد كان اولهما المعول عليهِ في كتب التاريخ العتيقة غير ان هذا الاسلوب اخذ يتحول تدريجاً الى الاسلوب الآخر حتى ان انصار هذا يعتقدون ان الحركات العامة والنهضات وتهيؤُ الامم لها واستعدادها للتحول والتغير — ان هذه العوامل هي التي تنشئُ العامل الشخصي او تظهرهُ بعد التكوين. فاذا لم تتوافر فقلما يتاح للاشخاص ان يخلدوا اسماءهم في تاريخ العالم مهما اوتوا من الدهاء ومهما رزقوا من المؤهلات . ومع ان هذه النظرية لا تخلو من شيء من الغلو والمبالغة فانها بالاجمال صحيحة تطابق نتيجة الاختبار المعبر عنهُ بالمثل العربي القائل ان الحاجة تفتق الحيلة والمثل الافرنجي الشائع وهو ان الحاجة ام الاختراع

قدمت هذه المقدمة الوجيزة توطئة للبحث في موضوع هذه الرسالة فان من يحاول ان يكتب تاريخ الصحافة الشرقية في نصف القرن الماضي قد يتوسل الى بلوغ قصده بايراد اسماء الصحف والمجلات التي اسست في ذلك القدر من الاعوام وما تقدمها منها وسرد شيء من سير مؤسسيها وكبار كتابها ومنشئيها وغير ذلك من المعلومات الخاصة بها . ومع ان بياناً كهذا لا يخلو من فائدة وفائدة فانهُ لا يسمو الى مرتبة النظر في التحول الذي طرأ على هذه الحركة الادبية والسياسية والعلمية العامة التي كان لها مقام عظيم في نهضة الشرق الحديثة وهو المقام الذي اعترفت بهِ في الغرب حيث لقبها ستفان لوزان «بصاحبة الجلالة» ولقبها غيرهُ بالقاب اخرى للدلالة على نفوذها وهيبتها واحترام الرأي العام لها

وقد صحبت الصحافة الاخبارية الناس منذ نشوئهم فتغلبت على وجوه شتى كان اولها نقل الاخبار ووصف المعارك وايراد الحوادث وذكر المفاخر والمآثر بالاشعار والنقوش فالياذة هرميروس وقصة الخلق وحكاية الطوفان وما نقش على الآثار المصرية الخالدة — كل هذا وسواهُ انما كان من مظاهر هذه النزعة الطبيعية التي تجلت في عصرنا هذا بالصحف اليومية والمجلات الدورية والتي استعين على اعدادها ونشرها بمعدات واختراعات لم يكن اسلافنا يعرفونها ولو ان كثيرين منهم تخيلوها وتاقوا اليها ولو ان بعضاً منهم انبأ بها قبل ان تظهر في عالم الوجود بعشرات من القرون

وقد لاحظ علماء العمران والباحثون في طبائع الامم ان نقل الاخبار واذاعتها صفة ملازمة للناس في بداوتهم وحضارتهم وكان الرواد والسياح يستخبرون ما يشهدون في البادية من سرعة نقل الحوادث والاقوال مع بطء وسائل النقل والانتقال ولا يزال بين قراء المتنطف من يذكر كيف ان اخبار الغزوات والاستعداد للحروب كانت تذاع باشعال النيران على الآكام والمرتفعات ليراها سكان القرى ويتأهبوا للنزال والصدام

غير ان عمر الصحافة بشكلها الحاضر واخراج الصحف في مواعيد دورية معينة وفي اوراق مطبوعة لا يتجاوز في الشرق مئة عام وكان مهد الصحافة الشرقية في مصر وهي مهد كثير من العلوم والفنون فقد روى التاريخ الحديث ان الحملة الفرنسوية بقيادة بونابرت انشأت في مصر جريدتين بالفرنسوية احداها « الكوريا ديجبت » والاخرى « الدكاد اجبسيان » فلما افل كوكب سعد الفرنسويين في هذه الديار ونظم محمد علي حي مصر الحديثة ومنشئ نهضتها العظيمة الاحكامَ والدواوين انشأ جريدة الوقائع المصرية بالعربية والتركية فصدر العدد الاول منها في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٢٨ وكانت جريدة الحكومة الرسمية ولا تزال كذلك، غير انها في الشطر الاول من حياتها الى الربع الاخير من القرن الماضي كانت تنشر مقالات ادبية ومباحث سياسية باقلام نفر من نوابغ المصريين لا يزال بعض منهم على قيد الحياة

ولكن الصحافة الشرقية ما كانت لتقوم لها قائمة لولا انتشار العلم والمعرفة في بلدان الشرق الادنى بما فعلهُ محمد علي وما صنعهُ فريق من فضلاء الاجانب الاوربيين والاميركيين فانهم اضاؤا مصباح العلوم بعد ما كاد يتطفئ واسسوا المدارس الراقية على شواطئ البحر المتوسط فنشأ بهذين العاملين في مصر وسورية طائفة متصلة اتصلت بالغرب ووقفت على اسباب تقدمه وتاقت نفوسها الى مجاراة الغربيين واقتفاء اثرهم فعمد افرادها الى التأليف والتصنيف والنقل والترجمة والبحث والتحقيق . وانما نوهت بمصر وسورية لانهما كانتا اشد بلدان الشرق الادنى اتصالاً بالغرب اذ كانتا صلة الاتصال التجاري والجغرافي والعلمي بين اسيا وافريقية واوربا فاتجهت اليهما انظار العاملين من الغرب كما اتجهت اليهما ابصار الفاتحين من قبل ومن بعد . وكان من جراء ذلك ان بعض مجلاتنا الشهيرة ولد في هذه المعاهد العلمية الكبيرة وكان ثمراً من ثمارها المباشرة كالمقتطف والمشرق او ثمارها غير المباشرة كالهلال وغيره

وقد كان ارتقاء الصحافة في الشرق الادنى تابعاً لثلاثة عوامل ومندمجاً فيها واولها

تعزيق حجب الامية والثاني تخفيف قيود الحكم المطلق والثالث استمرار يقظة روح القومية وتعزيز اصوله في النفوس والاذهان . فمن يقابل كثرة ما يطبع الآن من الكتب والمجلات والصحف المختلفة الاوضاع والمقاصد والسياسات وسعة انتشارها بما كانت عليه الحال من خمسين عاماً يتبين لهُ فعل نشر اصول القراءة والكتابة وشيوع التعليم فقد كان القراء في ذلك الحين يعدون بالمئات في كل قطر من هذه الاقطار وهم اليوم يحصون بعشرات الالوف

اما مهمة تحطيم قيود الحكم المطلق فكانت اثقل على الصحف من هذه لانها كانت تمسها مباشرة فكان الصحافيون يسجنون و يقتلون و يشرَّدون و يتفون لاسباب تراها اليوم تافهة وكانوا يستهدفون لصنوف العذاب وانواع البلوى علاوة على ما يعانونهُ من شظف العيش وقلة العطف ولكن تلك النفوس الكبيرة ما برحت تجاهد وتناضل غير مكترثة لما يصيبها من ضر وما يلحق بها من اذى فكانت اصدق ترجمان لهذه النهضة التي نهضتها شعوب الشرق لتتحرر وتعيش في جو نقي فيصح للباحث ان يقول ان تاريخ الصحافة الشرقية ما فتئ دليلاً على سير روح النهضة القومية وان الصحافة كانت بحكم تعبيرها عما يخامر النفوس من هذا القبيل من اعظم العوامل في تعزيز هذه النهضة وادناء موعد نضج ثمارها .

ولا يزال تاريخ الصحافة في تركيا ماثلاً للعيون وما قاساهُ الصحافيون العثمانيون من الترك والعرب وخصوصاً في عهد السلطان عبد الحميد معروفاً للذين خبروهُ بانفسهم ككاتب هذه السطور او الذين سمعوا وصفهُ من عارفيه . ولم يكن نصيب الصحافة من ذلك غير نصيبها في الغرب في عهدها الاول وتاريخ انكلترا وفرنسا والمانيا والنمسا طافح بهذه الحوادث ولكن النتيجة في الحالتين كانت واحدة كما ان الاحوال والعوامل التي ادت اليها كانت متماثلة ولا غرو فالناس اكفاء ابوهم آدم والامُّ حواء

فالعوامل الخارجة التي كان لها شأن في سير الصحافة وفي تصيير في بوتقة التجاريب والمحن والاضطهاد والاستبداد آلت الى تقويتها وترقيتها اي الى عكس ما كان معارضوها يشتهون فادركت الحكومات الشرقية ما سبق ان ادركتهُ الحكومات الغربية قبلها وهو ان الصحافة صارت من لوازم العمران . ومع ان الحكام ما برحوا يعتقدون ان هذه الاداة الجديدة شر لا بد منهُ فان السلطات ادركت قوتها ونفوذها وصارت تستعين بها على الاتصال بالهيئات المحكومة وتتخذ منها لسان حال وتتوسل بنفوذها وانتشارها الى الايضاح والبيان وتقرير ما تريد تقريرهُ في الاذهان حتى لقد افرط بعض الحكومات في ذلك

فتحداه الى شراء الصحف وافساد ضمائرها بالاموال وغيرها مما لا اطيل فيه الكلام لانه خارج عن نطاق هذا البحث

اما العوامل الداخلية فقد اخذت تتحول تحولاً كبيراً كان له تأثير عظيم في الصحافة والمقام هنا يضيق دون استيفائها لكثرة ما تقتضيه من الشرح والبيان لاصول الصناعة واسرارها فقد كان المألوف اولاً ان يكون صاحب الجريدة منشئها روحها روحه وقولها قوله وهي تسير في عملها باشرافه المباشر ولكن اعمار الصحف الحية تجاوز اعمار منشئيها فكان من جراء ذلك الاتجاه الى تغيير انظمة الانشاء والتحرير والادارة في الصحف وانقلاب بعض منها من ملك شخصي يتولى مالكه ادارته الفعلية الى شركات خاصة او مساهمة او هيئات سياسية ومالية وهذا امر كثير الشيوع في بلدان الغرب حيث تحتاج الصحف الى رؤوس اموال طائلة تحصى بمئات الالوف من الجنيهات ومع ما في هذا الانقلاب من وجوه للنقد والاعتراض يضيق المقام دون سردها فلا مندوحة عنه للسبب المتقدم ولاسباب مالية وصناعية وتجارية ولكن نتيجته الكبرى احلال العامل الاجمالي محل العامل الشخصي في الجريدة او المجلة وله مميزات لا يستهان بها وربما كان اظهر ما فيه انقطاع الصلة الشخصية بين منشىء الجريدة وجمهور قرائه لان الصحف في الغالب نتيجة جهد عشرات من الكتاب والمنشئين يندر ان يعلم القراء نصيب كل منهم من مظهر العمل الذي يقع تحت انظارهم

ثم ان اتحاد هذه العوامل الخارجية والداخلية وزيادة الثروة في بلدان الشرق واتساع نطاق التجارة والصناعة والاعمال المالية فيها — كل ذلك آل الى توسيع نطاق مباحث الصحف وتمكينها من زيادة موادها . وحسبُ المرء ان يقابل صحف مصر الكبرى ومجلاتها الراقية كما هي اليوم بما كانت عليه منذ ٢٥ عاماً فقط فان زيادة الانتشار بزيادة عدد المتعلمين واقبال التجار والصناع واصحاب الاموال على الاعلان في الصحف وامكان ايصال الصحف الى قرائها على جناح السرعة مكنتها من زيادة عدد صفحاتها وحملتها على الاستعانة بالآلات الحديثة لطبعها باقصر وقت مستطاع وجلب الاخبار بالتلغراف السلكي واللاسلكي والبريد والتلفون من الداخل والخارج واستخدام الكتّاب الماهرين والاكثار من المخبرين والمكاتبين اذ لا ريب في ان مهمة الصحف الاولى والكبرى هي موافاة قرائها بالاخبار الصحيحة الهامة وان يكون ذلك على جناح السرعة. ولا يسع من يطالع صحف مصر الكبرى وصحف الاستانة الا الاعجاب بما استطاعته في ربع قرن من هذا التبيل علاوة على ارتقاء مباحثها وقلة اعتمادها على ما تقتبسه من الصحف الاجنبية التي كانت من

اعظم المصادر التي يعول عليها في ما ينشر في الصحف الشرقية قبل النهضة الاخيرة . فان فلاح هذه النهضة بفروعها العديدة في بلدان الشرق وانتشار العلم وازدياد عدد المفكرين والذين يعنون بالمباحث التي تهم الشعوب فتح للصحف مجالاً جديداً يكاد يستغرق جهدها الاكبر

وقد كان للصحافة اعظم فضل في صون اللغة العربية وانتشالها من الوهدة التي هوت اليها في عصر الظلمة والانحطاط وكان لها يد تذكر في اظهار مرونة هذه اللغة وانعاشها لتماشي تقدم الحضارة في جميع ميادينها الادبية والسياسية والعلمية والصناعية فازهرت العربية بها ولبست ثوباً قشيباً بهياً ورنخت اصولها وصدت هجمات اللغات الاجنبية

ولا بد للباحث هنا من الاشارة الى تحول جديد شهدنا مقدماته في هذه الاعوام الاخيرة وهو نشوء الصحف المصورة سدّاً لحاجة ظهرت على اثر شيوع السينما عندنا فان هذه الصورلغة المتعلم والامي على السواء وفيها من المعاني ووسائل سرعة الادراك ما لا يتاح للكلمة المكتوبة او المطبوعة

ولا يكمل هذا البحث الوجيز من دون اشارة الى ابنة الصحافة الشرقية وارث بها الصحافة العربية في مهاجر الشرقيين فقد اعاد التاريخ نفسهُ وشهدنا في عالم الصحافة اندلساً جديدة في اميركا الشمالية واميركا الجنوبية حيث انشأ ادباء المهاجرين الصحف اليومية والاسبوعية والمجلات الادبية وكلها باللغة العربية وقد تأثرت بالمحيط الذي نشأت فيه وشقت لها طريقاً جديداً ونجحت نجاحاً عظيماً فكانت من اوثق الصلات بين العالم الجديد والعالم القديم ولكني لا ادري ما يكون شأنها في الولايات المتحدة بعد ما سن قانون الهجرة الجديد الشديد وبعد ما ينقطع سيل الهجرة العربية الى تلك الديار و « يتأمرك » ابناء الجيل الحاضر من اولئك المهاجرين وينطقون بالانكليزية بدلاً من العربية وعندهم بلغة شكسبير التي يجيدونها كابنائها صحف عظيمة راقية رخيصة الثمن منتشرة هناك ايما انتشار

ومن مظاهر التحول الجديد في الصحافة الشرقية اصطباغ جانب من الصحف بصبغة الاحزاب السياسية التي تنشأ في بلدان الشرق بحكم النهضة القومية والسياسية . ولا يستطاع من الآن تقدير تأثير هذا التحول في ارتقاء الصحافة وبلوغ فعلها في معالجة المشكلات العامة ولكن الباحث اذا عجز عن التنبؤ فلا يسعهُ اغفال هذا التحول الذي حذونا فيهِ حذو الصحافة الغربية حيث لكل حزب صحف تنطق باسمهِ وتعبر عن آرائهِ وتدافع عن مبادئهِ ووجهات نظرهِ في الشؤون الداخلية والخارجية

اما الذي يقدم الباحث على التنبوء بهِ فهو ان انتشار التعليم الاولي وارتقاء التعليم

الثاني العالي في مصر وسواها من البلدان الشرقية سيوسعان المجال للصحافة والتأليف والتصنيف ويزيدان في عدد الصحف والمجلات وفي سعة انتشارها وكثرة قرائها والمطلعين فيها وهذا يمكنها بالطبع من تحسين موادها وترقية مباحثها والاكثار من الايدي العاملة فيها حتى تصير من لزوميات الحياة لمجموع كبير كما هي اليوم لمجموع لا يزال صغيراً بالنسبة الى عدد السكان على نحو ما شهدناهُ حتى الآن من اقبال الناس على شراء الصحف اعتقاداً منهم بان قيمة ما يبتاعونهُ منها تساوي ما يبذلون من الثمن خلافاً لما كانت عليهِ الحال يوم كانت الصحف تعرض على الناس للاشتراك فيها فلا يقبلونهُ الاَّ حياء او رهبة

وقد اقتضى ارتقاء الصحافة الشرقية وتعدد مهامها وعظم تبعاتها الى تبدل عام في استعداد الذين يشتغلون بها وتأهبهم لهذه الصناعة الشاقة ومع اننا لا ننتظر ان تنشأ مدارس لتدريس اصول الصحافة وفنونها كما فعلوا في الولايات المتحدة وكما شرعوا يفعلون في لندن فان الحاجة الى هذا الاستعداد صارت ظاهرة بما يقتضيهِ العمل الصحافي من اتقان اللغة العربية وحسن التعبير بها واجادة بعض اللغات الافرنجية مع معرفة شيء من قواعد الاختزال والاحاطة بوسائل استقاء الاخبار وتمحيصها ونقدها والالمام باصول الاجتماع والعمران ونواميس الاقتصاد وكيفية معالجة الشؤون السياسية مما يقتضي علماً غير قليل ومواهب تذكر الى آخر شروط الكاتب التي بسطها صاحب المثل السائر في مستهل كتابهِ فان الجمهور صار ينتظر من الصحافة غير ما كان يتوقعهُ منها من ربع قرن فلم يعد يكفي الصحافي ان يكون منشئاً بليغاً بالعربية ولا ان يقتصر على سرد الاخبار بل ان يكون كبير الكنانة واسع الجعبة وان يلهمهُ الله صبر ايوب وان يظل في قلبهِ شاباً عدتهُ النشاط ورائدهُ مجاراة روح التقدم والارتقاء والابتعاد عن التعصب والجمود

واذا كان الصحافيون يشكون ويتململون لما لا يزال عالقاً بصناعتهم من قيود قانونية ومقاومات ظاهرة وخفية وقلة تقدير لجهدهم وتعبهم فان الحسن من هذه الجهة عظيم وسيطرد بحكم الارتقاء العام وارتقاء فن الصحافة الخاص. واذا شئنا دليلاً على تقدير الامم والحكومات للجهد الصحافي حسبنا ان نشير الى برييل المقتطف الذهبي الذي تفضل جلالة الملك فوضع حنكتهُ الكبرى تحت رعايتهِ السامية وتسابق الفضلاء في الشرق والغرب الى الاشتراك فيهِ تنويهاً بفضل العلم والمعرفة وتقديراً لعمل العاملين واعترافاً بجهاد المجاهدين في بلدان الشرق مهبط الوحي ومهد الالهام ومستقر الحكمة ومطلع فجر الحق

خليل ثابت